رسائل تلّغرافيّة

(٥)

الشِّفَاءُ فِي الْقُرْآنِ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ

بَلَّغَهُ

ابن الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ، أما بعد:

فهذه جملة من الآيات علىٰ سبيل المثال، أذكر فيها في هذه الرسالة: المراد بالشفاء الذي عناه اللَّه في كتابه وبيّن معناه وحدّه وصفته، ونوعَيْه، حتىٰ تستقيم بذلك صدورنا وقلوبنا وأرواحنا وأجسادنا وديننا ودنيانا، واللَّه الموفق والمسدّد والهادي إلىٰ سواء الصّراط.

ولقد قامت هذه الرسالة علىٰ آياتٍ خمسٍ:

● **الآية الأولىٰ: قوله تعالىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨]، وفي الآية بيان معنىٰ الشفاء شرعًا.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٧٥):

«يقول تعالىٰ ممتنًّا علىٰ خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم علىٰ رسوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ أي: زاجر عن الفواحش ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: من الشُّبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾؛ أي: محصلٌ لها الهداية والرحمة من اللَّه تعالىٰ، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدّقين الموقّين بما فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾؛

أي: بهذا الذي جاءهم من اللَّه من الهدىٰ ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولىٰ ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة؛ كما قال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية، . . . . عن أيفع بن عبدٍ الكلاعي يقول: لما قدم خَرَاج العراق إلىٰ عمر رضي الله عنه، خرج عمرُ ومولىٰ له، فجعل عمر يعدّ الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد للَّه تعالىٰ، ويقول مولاه: هذا واللَّه فضل اللَّه ورحمته، فقال عمر: كذبت، ليس هذا، هو الذي يقول اللَّه تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وهذا -يعني: الإبل- مما يجمعون». اهـ

- **في معنى الشفاء لغةً:**

قال ابن الأثير في «النهاية» (٢/ ٤٣٦):

«شفا: في حديث حسان: «فلما هجا قريش شفىٰ واشتفىٰ» [رواه مسلم (٢٤٩٠)]؛ أي: شفىٰ المؤمنين واشتفىٰ هو، وهو من الشفاء: البُرْءُ من المرض، يقال: شفاه اللَّه يشفيه، واشتفىٰ: افتعل منه، فنقله من شفاء الأجسام إلىٰ شفاء القلوب والنفوس. وشَفَوْا له بكل شيء: أي: عالجوه بكل ما يُسْتَشْفَىٰ به، فوضع الشفاء موضع العِلاج والمداواة». اهـ

وقال ابن فارس في «مقاييس اللغة» (٣/ ١٩٩):

«شفىٰ: الشين والفاء والحرف المُعَلّ: يدل علىٰ الإشراف علىٰ الشيء، يقال: أشفىٰ علىٰ الشيء، إذا أشرف عليه، وسُمِّيَ الشِّفاء شفاءً لغلبته للمرض وإشفائه عليه». اهـ

- **وقال السعدي في «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣١٧) عند هذه الآية** ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]:

«وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادّة عن

الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني؛ فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، ممّا يُوجب للعبد الرغبة والرهبة، وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير والرهبة من الشر، ونمتا علىٰ تكرار ما يَرِد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد اللَّه علىٰ مراد النفس، وصار ما يُرضي اللَّه أحبّ إلىٰ العبد من شهوة نفسه. وكذلك ما في القرآن من البراهين والأدلة التي صَرَّفَها اللَّه غاية التَّصْرِيف، وبيّنها أحسن بيان، ممّا يزيل الشبه القادحة في الحقّ، ويصل به القلب إلىٰ أعلىٰ درجات اليقين.

وإذا صحّ القلب من مرضه ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده.

قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالهدىٰ هو: العلم بالحق والعمل به، والرحمة هي: ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدىٰ به، فالهدىٰ أجلّ الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدىٰ به، ولا يكون رحمة إلّا في حق المؤمنين.

وإذا حصل الهدىٰ وحلّت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح والربح والنجاح والفرح والسرور». اهـ

قلت: هذا هو الشفاء الصدري القلبي النفسي الروحي الذي وصفه اللطيف الخبير في كتابه الحكيم، وبيان معنىٰ المفسّرين في ذلك، والمراد هنا: شفاء النفس من الهوىٰ، والغيّ، والضلال، والفسوق، والعصيان، وارتكاب الكبائر، والمنكرات، والكذب، والغش، والفواحش، والخنا، والنفاق، والإلحاد، وتكفير المسلمين، والخروج علىٰ حكام المسلمين، وقطع الطريق، وإشاعة الفوضىٰ والبلابل والهزاهز والزلازل، وفساد العقيدة والفكر والتطرف والإرهاب، وطهارة القلوب من الغل والحقد والخيانة والخداع والرشوة، والإمعان في حبّ الذات، والرجوع علىٰ قول اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ

وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، هذا هو الشفاء في دين الإسلام الحنيف.

● **الآية الثانية: وهي قوله تعالىٰ:** ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري شيخ المفسّرين في تفسيره «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (١٥/ ١٥٣):

«يقول تعالىٰ ذِكْرُهُ: وننزل عليك يا محمّد من القرآن ما هو شفاء يُسْتَشْفَىٰ به من الجهل ومن الضلالة، ويُبَصّر به من العمىٰ للمؤمنين ورحمة لهم؛ لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض اللَّه، ويحلّون حلاله، ويحرّمون حرامه، فيدخلهم الجنّة بذلك، وينجّيهم من عذابه، فهو لهم رحمة ونعمة من اللَّه، أنعم بها عليهم ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ لأنهم كلما نزل فيه أمر من اللَّه بشيء أو نهي عن شيء كفروا به، فلم يأتمروا لأمره، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه، فزادهم خسارًا إلىٰ ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسائر، ورجسًا إلىٰ رجسهم قبل، كما (٢٢٦٠) حدثنا . . . عن قتادة قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، وإن اللَّه جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين». اهـ

قلت: هذا تفسير الإمام الطبري شيخ المفسرين في حدّ الشفاء وصفته وكنهه وطبيعته ومراده، بالإدراك العلمي الرباني القرآني ذي البصيرة والوعي وحسن التصوّر؛ لأن اللَّه تعالىٰ بيّن العلّة والسبب والغاية من الخلق فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

● **الآية الثالثة: قوله تعالىٰ:** ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٦٨):

«أَعْلَمَ اللَّهُ أن القرآن هدىٰ وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾؛ أي: صمم عن سماع القرآن، ﴿وَهُوَ﴾ يعني: القرآن ﴿عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾ لأنهم لا يفقهون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يُقال ذلك لمن لا يفهم: أنت تنادىٰ من بعيد؛ أي: كأنه ينادىٰ من موضع بعيد منه، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه، وقيل: أي من لم يتدبّر القرآن صار كالأعمىٰ الأصم، فهو ينادىٰ من مكان بعيد فينقطع صوت المنادي وهو لم يسمع.

وقال علي رضي الله عنه ومجاهد: أي بعيد من قلوبهم كأنما يُنادَوْن من السماء فلا يسمعون». اهـ

قلت: هذه الآية الثالثة نور علىٰ نور علىٰ نور في مراد اللَّه تعالىٰ من آيات الشفاء في القرآن، فمرض الجسد أمر عرضي زائل بإذن اللَّه، وهو وسيلة لا غاية، أما الغاية الحقة فهي: شفاء الأرواح والنفوس والصدور والقلوب التي عليها مدار الدين والدنيا والثواب والعقاب.

وقال السعدي في «تفسيره» (ص٧٥١) عند نفس الآية ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌۖ﴾:

«أي: يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحثّ علىٰ التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفي القلب... ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾؛ أي: لا يبصرون به رشدًا ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلَّا ضلالًا، فإنهم إذا ردّوا الحق ازدادوا عمًى علىٰ عماهم، وغيًّا علىٰ غيِّهم». اهـ

قلت: وهذا يؤكد ما قلته أن أول آية في القرآن هي سورة الفاتحة وفيها انفراد

اللَّه بالتوحيد والملك والعبودية والاستعانة والهداية إلىٰ الصراط المستقيم، وهو الشفاء التام من جميع الأسقام الجسدية والقلبية.

وأول السورة الثانية في القرآن وهي البقرة وبدأها تعالىٰ فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢-٥].

● **الآية الرابعة في قوله تعالىٰ:** ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٧-٨٢].

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٣٨-٣٩):

«يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾؛ أي: هو الخالق الذي قدر قدرًا، وهدىٰ الخلائق إليه، فكلٌّ يجري علىٰ ما قدّر، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾؛ أي: هو خالقي ورازقي؛ بما سَخّر ويسَّر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُزْنَ، وأنزل الماء، وأحيا الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقًا للعباد زلالًا لـ ﴿نُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسند المرض إلىٰ نفسه، وإن كان عن قدر اللَّه وقضائه وخلقه، ولكن أضافه لنفسه أدبًا، كما قال تعالىٰ آمرًا للمصلي أن يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، فأسند الإنعام إلىٰ اللَّه ﷻ، والعطب حُذِف فاعله أدبًا، وأسند الضلال إلىٰ العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؟ [الجن: ١٠]، ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ

فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؛ أي: إذا وقعت في مرض لإنه لا يقدر علىٰ شفائي أحدٌ غيره، بما يقدّر من الأسباب الموصّلة إليه ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾؛ أي: هو الذي يحيي ويميت؛ لا يقدر علىٰ ذلك أحد سواه، فإنّه هو الذي يبدئ ويعيد ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: هو الذي لا يقدر علىٰ غفر الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا اللَّه وهو الفعّال لما يشاء؟!». اهـ

قلت: وهذه الآية الرابعة بيّنت ما ذكرته آنفًا من بدء المصحف بسورة الفاتحة، وبداية سورة البقرة اللتين ذكرتا أصل العبادة ودين الإسلام وهو العقيدة الصحيحة والدين المستقيم، الذي فيه الشفاء الذي يهتدي به المهتدون، ويرشد به المرشدون، ويتبصّر به المُبْصرون، ويعي به الواعون، ويدرك به المدركون، ويتعلّم به المتعلّمون، وكذلك يستقيم المستقيمون.

● **الآية الخامسة، وهي قوله تعالىٰ**: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

قال السعدي في «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان» (ص٣٣١) عند هذه الآية:

«شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغمّ والهمّ؛ إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين للَّه ولرسوله، ساعين في إطفاء نور اللَّه، وزوالًا للغيظ في قلوبهم. وهذا يدل علىٰ محبّة اللَّه لعباده المؤمنين، واعتنائه بأحوالهم، حتىٰ إنه سبحانه -جعل من جملة المقاصد الشرعية- شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم». اهـ

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٧٥) عند هذه الآية:

«وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذنٍ لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، عن مسلم بن يسار عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها، وقال: «**يا عويش، قولي: اللهم ربّ النبيّ محمد اغفر ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرْني من مضلّات الفتن**». ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم عن الباغندي،

عن هشام بن عمار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجَوْن عنه.

قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: من عباده ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ أي: بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبدًا، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشرّ، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة». اهـ

قلت: وهذا ظرف آخر في معنىٰ الشفاء، فإن المرء إذا أصابه غمّ وحَزَن وهمّ وكرب قد يؤدي ذلك بموته غيظًا وحسرةً، كما يحدث -عياذًا باللَّه- في الموت بالسكتة القلبية، لخسارة مالية كبيرة، أو صدمة قلبية من هموم متراكمة أو مفاجأة، فتكون أجله ومنيّته بقدر اللَّه، فمن أجل الشفاء شفاء القرآن.

فإذا كان ذلك كذلك، فاعلم: أن قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨] أن الشفاء الصحيح المزيل للعلل والأمراض والأسقام، إنما هو اللَّه وحده لا شريك له، فلا يشفي طبيب، ولا علاج، ولا دواء، ولا نبات، ولا رقية إلا بإذن اللَّه تعالىٰ، والمرجع إليه وحده بالاستعانة به، والتوكل عليه، وحسن الظن به، واليقين الحق بقدرته علىٰ الشفاء، وأنه علىٰ كل شيء قدير.

وعليه، فلابد من تصحيح عقيدة الشفاء والتطبيب، وأن اللَّه تعالىٰ جعل لكل داء ومرض، دواءً وعلاجًا، وكله بقدر اللَّه، فقد يكثر المريض من الذهاب إلىٰ الأطباء الثقات المتمرسين والنبغاء المتفوقين، ويشخصون الداء ويصفون الدواء، ولا يُشْفَىٰ المريض؛ لأن الشافي هو اللَّه، والمُطبّب هو الرحمن الرحيم، وكذلك قد يتزوج الزوجان، ولا مانع طبّي عندهما ولا ينجبا وقد أخذا بكل الأسباب، فهو سبحانه الذي يجعل الأسباب والمسببات، فعّال لما يريد قال تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورىٰ: ٤٨-٤٩].

روىٰ البخاري (٥٦٧٨)، ومسلم في «صحيحيهما» قال ﷺ: «**لكل داء دواء، فإذا أصيب دواءُ الداءَ بَرَأَ بإذن اللَّه ﷻ**» هذه رواية مسلم.

ولفظ البخاري: «**ما أنزل اللَّه داءً إلا أنزل له شفاءً**».

والمعوّل عليه في هذا الباب: شفاء الصدور والقلوب، والأرواح، والنفوس، والعقول، والأفكار، والعقيدة، والأخلاق، والمعاملات، وكل ذلك تجده في كتاب اللَّه وسنة رسوله، أما أمراض الأجساد فهي عارضة، وسبب لغسل الذنوب، أما آفة الدين والمعتقد والفكر المنحرف الضال عن الصراط المستقيم، وعن شريعة الفرقة الناجية، التي هي مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فهذا لا يشغل إلا المؤمنين أصحاب القلوب الطاهرة، الصالحين العالمين لمراد اللَّه ورسوله، العاملين بالكتاب والسنة قولًا وعملًا ونية.

- **وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا:**

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

قال السعدي في «تفسيره» (ص٧٦٢):

«وهو هذا القرآن الكريم؛ سمّاه روحًا لأن الروح يحيا به الجسد، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير». اهـ

وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤١):

«قال مجاهد: هو القرآن، وقال مالك بن دينار: وسمّاه روحًا لأن فيه حياة من موت الجهل». اهـ

- **الإمام ابن القيم وفقهه العالي في الاستشفاء بالقرآن:**

قال رحمه الله في كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٤/ ٣) في فصول نافعة في هديه ﷺ في الطب الذي تطبّب به، ووصفه لغيره، فقال:

«**المرض نوعان**: مرض القلوب ومرض الأبدان، وهما مذكوران في القرآن.

ومرض القلوب نوعان: مرض شبهة وشكّ، ومرض شهوة وغي، وكلاهما في القرآن.

قال في مرض الشبهة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالىٰ في حق من دُعي إلىٰ تحكيم القرآن والسنة فأبىٰ وأعرض: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٨-٥٠]، فهذا مرض الشبهات والشكوك.

وأما مرض الشهوات فقال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فهذا مرض الشهوة». اهـ

ثم قال ابن القيم (٤/ ٢٨٧) بعد ذكر الآية الأولىٰ والثانية من هذه الرسالة:

«فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كلّ أحد مؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه علىٰ دائه بصدقٍ وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبدًا.

وكيف تقاوم الأدواء كلام ربّ الأرض والسماء الذي لو نزل علىٰ الجبال لصَدَعَها أو علىٰ الأرض لقطعها -قال تعالىٰ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد: ٢١]- فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلّا وفي القرآن

سبيل الدلالة علىٰ دوائه وسببه، والحِمْية منه لمن رزقه اللَّه فهمًا في كتابه.

وأما الأدوية القلبية، فإنه يذكرها مفصّلة ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه اللَّه، ومن لم يكفه فلا كفاه اللَّه». اهـ

أقول: فمدار الأمر وملاكه ودعامته وأصله وكلّه ورأسه وذروة سنامه: هو اليقين باللَّه وحسن الظن به، وذلك بتصحيح المعتقد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والتوكل علىٰ اللَّه، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا حقق العبد ما أُمر به ونُهي عنه وهي العبودية، يسّر اللَّه له أمره كله، وكفاه شرّ نفسه، وحفظه من كل سوء ومرض وشبهة وشهوة وضلالة وغيّ، وهداه إلىٰ الصراط المستقيم، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢].

واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل، والحمد للَّه أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بلَّغه
الفقير إلى اللَّه
ابن الكيَّال